

في فلسفة بول فيرابند من صرامة المنهج إلى التعددية المنهجية

شاذلي هواري¹

الاعتقاد السائد لدى الباحثين أصحاب النزعة التجريبية، هو أن العلم يمثل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية. لما يتميز به من خصائص الموضوعية و الدقة و الوضوح، إلي جانب اعتماده على المنهج التجريبي كركيزة أساسية وراء نجاح أي نشاط علمي. فبفضل المنهج أثبت العلم قدرته على التنبؤ و التفسير و التحكم في الظواهر. وأصبح بذلك أساس كل نزعة علمية كونه الإطار الجوهري الذي تنتظم وفقه المعارف، و الأداة التي تمكن العلماء من اكتشاف معارف جديدة مع تبريرها.

فصارت النظريات العلمية تستخلص بمنهجية استقرائية صارمة انطلاقاً مما تمده الملاحظات و التجارب. واعتقد العلماء بموضوعية العلم، الذي لا ينفد إليه الشك، والمعرفة العلمية عندهم معرفة في جوهرها استقرائية المنهج.

لكن مع ظهور الحركة الفكرية في فلسفة العلم المعاصرة ، وتساؤلاتها حول طبيعة العلم و آليات عمله وطبيعة المناهج، وكذا مشروعية النتائج المتوصل إليها أظهرت إمكانية الشك في قيمة هذا المنهج بسبب الصعوبات المنطقية التي اعترضت سبيله، ويعد دافيد هيوم أول من صاغ ما يعرف "بمشكلة الاستقراء" إذ كيف يمكن تبرير القفزة التعميمية من عدد محدود من الوقائع التجريبية إلي قانون عام و كلي، فانشغل العلماء بعد هيوم في البحث عن المبررات التي تجيز للعالم الطبيعي أن يؤسس قانون عام ينصرف على المستقبل، مع علمه أن عمله كله منحصر في أمثلة جزئية شاهدها في الماضي، فكيف يجوز له أن يقفز من المحدود إلي المطلق؟ وهل صدق الحالات الجزئية يبرر صدق الكلي لهذه الحالات؟

هذه المشكلة تحولت إلي موضوع رئيسي في فلسفة العلوم بعد هيوم، وتساءل الباحثين حول طبيعة المنهج العلمي من عدة نواحي: ما هو المنهج العلمي ؟ هل يمكن أن يكون الاستقراء سبيلاً للكشف العلمي؟ وإن لم يكن كذلك، فهل من منهج بديل؟ هل يمكن التحدث عن منهج واحد في العلم أم عن مناهج متعددة ؟ عادة ما يشار إلي المنهج العلمي على أنه " الوصف الموضوعي للإجراءات المطبقة فعلاً، في تخصص معين أو عدة تخصصات توصف بالعلمية بتواضع من جماعة الباحثين، وبصرف النظر في ذلك عن كل اعتبارات قيمية"⁽²⁾. ولا يمثل هذا التحديد إلا جانب واحد من المعاني التي يتضمنها هذا المفهوم. هذا لأن التساؤلات الإستيمولوجية حول المنهج لا تكتفي بالوصف بل بالنقد، كما أنها تقترح مناهج جديدة لغرض توحيد البحوث

¹ أكاديمي بجامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة.

⁽²⁾ Lena soler, introduction à l'épistémologie, paris-ed- ettipses 2000,p 208

وإثبات مشروعيتها نتائجها. حيث أشار "كارل بوبر" إلى المنهج الاستنباطي القائم على "مبدأ التكذيب" بديلاً للمنهج الاستقرائي القائم على "مبدأ التحقق". إلا أن الاتجاه البوبري لم يسلم بدوره من النقد، خاصة مع ظهور النزعة النسبانية بدءاً من "توماس كوهن" مروراً بـ"بلاكاتوس" ووصولاً إلى "فيرابند"³ الذي يمثل الحلقة الأخيرة من هذه النزعة، إذ عمل على تقويض كل ما هو مطلق في المعرفة الإنسانية بما فيها المعرفة العلمية، التي لا تنبع من قواعد مضبوطة. فرفض المنهج الصارم بكل قوة واعتبره معيقاً للتقدم العلمي، و المبدأ الوحيد الذي تبناه معتبراً إياه عاملاً أساسياً في التقدم العلمي هو "كل شيء جائز"، هذا المبدأ يبعد الطابع الاختزالي للنزعة للوضعانية و التكدبية، ويدافع عن تعدد و تنوع المناهج، مؤكداً على وجودها و توافقها مع سياقات علمية اجتماعية ثقافية متباينة، بالإضافة إلى ذلك فقد وضع موضع الشك القيمة التي تعطيها التصورات الإستمولوجية للعلم، فوقف ضد كل محاولة تسعى إلى بناء نظرية تستهدف عقلنة الممارسة العلمية، لأنه يرى أن هذه الممارسة مصاغة على نحو معقد تختلط فيها الأحكام العرفية الجمالية مع التصورات الميتافيزيقية و الرغبات الذاتية. لذا دعا إلى عدم تقبل الظواهر و القوانين و الأحكام ببساطة دون فحصها و نقضها و مناقشتها جيداً و إلى محاولة تغييرها. فكان النقد أهم سمة في فلسفته إلى درجة تتيح لنا القول بأنه ينتقد كافة المشروعات المتوفرة في فلسفة العلم عامة و الميثودولوجيا خاصة. فليس هناك منهج كلي متميز و لا توجد معايير مطلقة كلية، و القول بوجود منهج علمي يتضمن اليقين و المطلقية قول غير مؤكد، فالمنهج في كل صوره سواء كان استقرائياً أو استنباطياً تعرض للنقد و التعديل و التبديل طيلة مراحل التفكير العلمي.

"فيرابند" يرفض السلطة المعرفية لمنهج محدد، و يدعو في المقابل إلى التعددية المنهجية التي تعني عنده الفوضوية و اللاسلطوية المعرفية، فسميت فلسفته "باللاعقلانية الفوضوية"، هذه العقلانية المفتوحة التي ترفض أن يؤسس العلم على قواعد صارمة، يريد "فيرابند" من خلالها فتح مجال البحث أمام أنماط و أساليب أخرى من التفكير تساهم في عملية بناء العلم، والقول بالمنهج الواحد الصارم الذي يدعي اليقين يعيق العمل، و يكون سبباً في عرقلة التقدم العلمي "فكل القواعد التي يدافع عنها علماء و فلاسفة العلم باعتبارها شكلاً تنظيمياً للمنهج التعليمي إما عديمة النفع... أو ضعيفة"⁽⁴⁾. وهذا الضعف ناتج عن الصيغة الإقصائية التي تتميز بها الميثودولوجيات التقليدية، بسبب إدعائها بوجود منهج وحيد ينبغي الالتزام به في الممارسات العلمية، فاختزال الممارسة العلمية في منهج وحيد يؤدي حتماً إلى إلغاء جزء كبير من البحث العلمي ذاته، كما أن الكثير من المعارف يتم إقصاؤها من دائرة العلم بحكم أنها خارج المنهج، فالتعددية تنعش الفكر الإنساني، وتعطي فرصاً للجميع للتعبير عن وجهات نظرهم المختلفة، فالعقلانية التي ينشدها فيرابند "ليست غايتها الوصول إلى نظرية مثالية، إنما بالأحرى زيادة محيط

3 Paul Karl Feyerabend (13 janvier 1924 – 11 février 1994) est un philosophe des sciences d'origine autrichienne.

(4) فيرابند (بول)، العلم في المجتمع الحر، ترجمة السيد نفادي وسمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر (ب-ط) 2000م، ص 113

البدائل، واستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن بعيد، وأصبحت في طي النسيان، لأنها ربما يكون بها عنصر يوتوبي يفيد معارفنا"⁽⁵⁾

فالتعددية سمة من سمات العلم، وهي تمثل الأسلوب الأفضل لتقدمه، فالنظرية القوية و المرغوبة لا تترك وحدها تسيطر على الساحة العلمية، وإنما لابد من تدعيم البدائل المختلفة، فخير اختبار للنظرية العلمية أن تتنافس مع النظريات الأخرى القوية في إطار مناهج متعددة، فنظرية الخلق المستمدة من النصوص الدينية نافست نظرية التطور، وكان هذا التنافس في صالح تقدم العلم و الإنسان⁽⁶⁾. هذا الإنسان الذي له وجود في فلسفة "فيرابند" لابد أن تمنح له فرصة كي يظهر أفكاره في الساحة العلمية فالعلم نتاج لعبقرية الإنسان الذي يحتاج للحرية و التقدير والاحترام. إن رفض "فيرابند" للمنهج العلمي يعود للانغلاق الذي يفرضه على البحث، لأن العالم الذي نريد اكتشافه غير معروف بالمرّة، و الكثير من الحقائق مازالت لم تعرف، لذا يجب أن نبقي منفتحين على كل الخيارات الممكنة دون تحديدها مسبقاً، إذ لا ينبغي للعلماء أن يبقوا سجناء داخل قواعد الميثودولوجيا.

كما يدعو "فيرابند" للأخذ بالأساطير القديمة، ومن قيم المجتمع، والنظريات كبدايات تفيد العلم، ويستند "فيرابند" في ذلك على أدلة تاريخية لتفنيد الإدعاء القائل بالواحدية المنهجية، "ففكرة المنهج التي تحتوي على مبادئ صارمة لإدارة العملية العلمية تلاقي صعوبة كبيرة، عندما تواجه نتائج الأبحاث التاريخية"⁽⁷⁾ فالكثير من النظريات العلمية ما كان لها أن تبرز لولا اختراقها لقواعد المنهج المتعارف عليها، فالنظرية الذرية، والثورة الكوبرنيكية، وظهور الذرية الحسية، و النشوء المتدرج للميكانيكا النموذجية للنشوء، لم تكن لتحدث إلا لأن بعض المفكرين قد قرروا عدم الانغلاق في قواعد معينة أو لأنهم اخترقوها.⁽⁸⁾

إن التعددية لا تعطي فعالية على مستوى الميثودولوجيات فقط، وإنما يمكنها أن تتخذ كأسلوب حياة في تطور الإنسانية، ففي مجال التربية والتعليم، فإن التعدد لا يجعل الفرد ينظر بمنظار واحد للحقائق من حوله، فكلما كان التعدد أكثر ساهم في اتساع المحيلة، وأدى ذلك إلى نتائج إيجابية، وهذه النظرة مستوحاة من النزعة الليبرالية التي يدافع عنها "فيرابند" في فلسفته، حيث يؤكد أن التعددية ليست أمراً عرضياً في تاريخ العلوم، وإنما هي أمر ضروري ومعقول لتقدم المعرفة بصفة عامة، والمعرفة العلمية بصفة خاصة، لذا يقول "فيرابند" "إن تنوع الآراء ضروري لمعرفة موضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد المتناسب مع النظرة الإنسانية"⁽⁹⁾، فأهم سمات المنهج عند "فيرابند" هي الليبرالية، وإتباع التعددية ليس أمراً عرضياً في تاريخ العلوم، وإنما هو ضروري ومعقول لتقدم المعرفة، هذا التقدم مرهون بتوسع المحتوى التجريبي للنظريات إلى أقصى حد، واستيعابها بجلاء أكبر،

⁽⁵⁾ عوض (عادل)، الإستومولوجيا بين نسبية فيرابند و موضوعية شالمرز (ط1) دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية. 2004م، ص99.

⁽⁶⁾ نور (أحمد) ضد المنهج، إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة، قضايا العلوم الإنسانية إشكالية المنهج، العدد الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996م، ص193.

⁽⁷⁾ فيرابند (بول) ضد المنهج، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي (طبعة للطلاب)، الإسكندرية، 2005م، ص33.

⁽⁴⁾ فيرابند (بول)، مصدر سابق، ص65

⁽⁵⁾ فيرابند (بول)، مصدر سابق، ص80.

حيث يفرض على العالم إدخال تصورات متباينة، وإتباع منهجية متعددة، كذلك ينبغي عليه مقارنة أفكاره ليس بالواقعة فقط، وإنما بأفكار أخرى تتنافى معها، إن رفض "فيرابند" فكرة قيام منهج مطلق، أساسه إنشاء فرضيات لا تتناسب مع النظريات المؤسسة أي: أنه يمكن القبول بنظريات تتعارض مع التجارب، هذا ما تؤكده نظرية "بوهر" والتي لا تتناسب مع التجارب المثبتة آنذاك، كذلك النظريات النسبية الخاصة المتعارضة مع تجارب "كوف مان" فيتم تجاوز الصعوبات المطروحة بفروض تحيلية⁽¹⁰⁾.

يتضح مما سبق أنه لا يوجد منهج علمي يشكل أساسا لكل نموذج بحث، وضمنا لأن يكون البحث علميا، ولكن هذا لا يعنى تعسفية البحث العلمي، وإنما يريد "فيرابند" أن يبين لنا أنه توجد معايير تأتي من عملية البحث ذاتها، وليس من وجهات نظر عقلانية مجردة، فملايسات البحث العلمي وممارسته، هي التي تفرض هذه المعايير، ولا يمكن أن تأتي سابقة له من معايير عقلانية جاهزة مسبقا.

إن "فيرابند" يلح على أن تكون القواعد المنهجية مستمدة من الممارسة الواقعية، ولا وجود لقواعد جامدة، وهو في ذلك ينطلق من موقف إنساني، يتمثل في الحث على الإبداع مهما كانت الأفكار والتصورات، فالإنسان هو مصدر العلم الوحيد، وليست المناهج المحددة سلفاً يقول: "إن العلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث، وليس لإتباع قواعد معينة، ومن هنا لا نستطيع الحكم على العلم باستخدام قواعد إبستمولوجية مجردة، إلا إذا كانت القواعد نتاجا لممارسات إبستمولوجية دائمة التغيير⁽¹¹⁾.

إن "فيرابند" لا يرفض المنهجيات الموجودة، وإنما يطالب بتوفرها كلها في البحث العلمي، ويرفض المنهج القائم على الإيديولوجية التي تدعي الكلية، ولا تستند إلى تاريخ العلم، ف "فيرابند" لم يقدم منهجا بديلا وإنما فتح المجال أمام كل المناهج للتعبير عن نفسها، وهذا ما تؤكده عبارة "كل شيء جائز" إذ يقول: "ليس لدي النية في إبدال لعبة قواعد بأخرى، لكن أقصد إقناع القارئ أن كل الميثودولوجيات حتى الأكثر بداهة لديها حدود، وأن أحسن طريقة لإثبات ذلك، هي بيان حدود، ولاعقلانية بعض القواعد، والتي ينظر إليها من قبل بعض أنها أساسية.

إن الإدعاء بوجود منهج واحد له القدرة على حل كل القضايا العلمية أمر مبالغ فيه، ذلك أن الذين يدعون بوجود منهجية علمية صارمة لم يستوعبوا التاريخ العلمي، الذي يؤكد التعددية، لذا يدعو "فيرابند" إلى التخلص من محدودية العناصر المكونة للمعايير المنهجية، كما هو سائد في التصورات الإبستمولوجيا بمختلف أنواعها، فبالعددية وحدها نستطيع أن نتفتح على النظريات العلمية، فيسود الحوار، والتبادل بين مختلف التجارب مما يفيد التقدم العلمي، فالأخذ بالمنهج الواحد يتنافى مع طبيعة العلم القائمة على الإبداع الناتج عن الخيال والعبقرية، أكثر مما هو مرتبط بالصرامة الموضوعية، لذا كانت التعددية صالحة للعمل العلمي، فالمعرفة العلمية تسير في سياق عام يمتزج فيه العلمي بالثقافي والاجتماعي والتاريخي والفلسفي، فلا يمكنه حصر هذا التنوع، والقضاء

⁽¹⁰⁾فيرابند (بول)، ثلاث محاورات حول طبيعة المعرفة، ترجمة محمد أحمد السيد، منشأة المعارف العامة (ب-ط) 1997م، ص88.

⁽¹¹⁾فيرابند (بول)، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص114.

عليه، وإقصائه باسم صرامة المنهج الواحد، هذا التوجه النسبي في فلسفة "فيرابند" يجعل من الحقيقة متعددة، وليست واحدة، فالتعددية تسمح بالمناقشة، وانتقاد الأفكار المقبولة سلفاً أكثر مما تجرى مقارنة مع وقائع يدعى أصحابها أنها مستقلة عن الاعتبارات النقدية، لذلك يدعو "فيرابند" إلى تبني مذهب التعدد في مناهج التدريس، ونضع المتعلم أمام زخم من المعارف المتنوعة، ف بجانب البيولوجيا والتطور الكوني للتقدم العلمي وفيزياء الكم والنسبية، نضع مكاناً للسحر والتنجيم والأسطورة، فينبغي أن تكون هناك حرية كاملة في اختيار نظام المعرفة، لذلك يتبنى "فيرابند" شعار كل "شيء جاز"، والذي يرى فيه المبدأ الوحيد الذي لا يكبح تقدم العلم.

وفي الأخير يمكن القول أن مجال المعرفة أوسع من أن ينحصر في قالب ضيق يحد من فعالية الذات في الإبداع، فلا يوجد تصور خالد كوني يدعي اليقين، ويقصي المعارف بحكم أنها لا تتماشى مع المنظومة العلمية، فليس هناك صنف واحد من المعرفة يسمى علماً، وإنما هناك معارف متعددة و نشاطات متنوعة.